الأدب بين الخاصة والعامة

لامرتين ورينه جارد

للسيد اسكندر كرباج

تابع لما نشر في العدد الماضي

فيسأل لامرتين ضيفته : هل أصابك في حياتك ما أحزنك وصدع قلبك ؟ فتجيبه : مراراً قليلة ياسيدي لأني خالية البال من حمد الله . غير أن لكلّ أتراحه على هذه الأرض ، ولا سيما إذا كان فتاة مثلي لا أسرة لها ولا أقارب ولا زوج ولا بنين ، تنام وحيدة وتستيقظ وحيدة لا تسمع في داخل غرفتها إلا سقسقة عصفورتها في القفص . ولكن شاء القدر أن يحرمني هذه الرفيقة اللطيفة بعد أن ألفتها فلقيتها صباح يوم ميتة وقد ضمّت قائمتيها وفتحت منقارها وأطبقت أجفانها ، وبموتها حلّت الكآبة في الغرفة فلا سقسقة ولا فرح ولا صداقة ، فما أحزن هذه الحالة ياسيدي . ثم تجفف دمعتين كانتا تترقرقان في محاجرها وتزيد على قولها :

إذا لم يكن للانسان مَن يحبه ويعطف عليه من أبناء جنسه فانه يميل الى الحيوانات وعشرتها . كانت عصفورتي تحبني ، وكثيرا ما داعبتها وتحدثت اليها كأنها تنطق وتعقل . يقولون ليس للحيوانات أرواح ، ولكن لو لم يكن لعصفورتي روح فبماذا كانت تحبني ؟ أبريشها وقوائمها ؟ وسمعتُ أيضا أن في الفردوس أشجاراً تتغيؤها الأطيار . فأنا لا أرى أقل بدعة في هذا القول ، أيمكن أن يكون الله مع صلاحه وعدله مخاتلاً ؟

فيسألها لامرتين : هل كتبتِ شيئاً في موضوع حزنك ؟

فتجيبه : نعم كتبت لما نظرت القفص فارغاً والنبتة جافة على شباك النافذة ؛ طفر الدمع في عيني ، فجلست الى المنضدة ونظمتُ قصيدة ناجيت بها تلك العصفورة الرقيقة كأنها لا تزال حية تسمعني ، ولكنني لم أستطع تكملتها لفرط حزني

فيقول لها لامرتين : أسمعيني هذه القصيدة أو ما تتذكرينه من أبياتها ، ولا بأس إذا جاءت متقطعة فبغيتي أن أقف على مبلغ ما فيها من الشعور لا على تناسق قوافيها

فتعمل فكرتها قليلاً ، ثم تنشد بصوت رقيق ولهجة مؤثرة أبياتاً من الشعر في وصف عصفورتها وما كان بينهما من الصداقة والألفة

فيشكرها لامرتين على ثقتها به واظهارها له مكنونات قلبها ، ثم تأتي زوجته ، وبعد أن تستقبل رينه بشيء من تلك الدالة ، وذاك العطف الذي يفقد الغريب بعض حيائه وارتباكه تدعوها إلى العشاء تحت شجرة تداعب أغصانها نسمات البحر محدثة فيها حفيفاً لطيفاً ، كأن يذكر رينه بحفيف جناحي عصفورتها

ثم يقصدون إلى شاطئ البحر القريب ، ويجلسون على مقاعد زورق ، ويعودون إلى التحدث ، فتقول زوجة لامرتين لرينه : يظهر لي أنك ولوع بالمطالعة ، وهي التي جعلتك تتكلمين اللغة الوطنية بهذه البراعة ، والتعبير عن عواطفك بمثل هذا الشعر الشجي

فتجيبها رينه : نعم ياسيدتي ، إن المطالعة من أكبر أسباب غبطتي ؛ فبعد اشتغالي النهار كله ، وقيامي بواجب الصلاة لله ، لا أجد لذة إلا فيها ، فمن ينهض باكراً ويخيط حتى المساء يضطر إلى راحة أناملة وتسلية نفسه . إن علاقاتنا مع الجيران لا تتعدى تبادل التحية ، لأن النساء ينصرفن إلى إعداد الطعام ، أو إرضاع الأطفال ؛ والرجال بعضهم يرقد سريعاً لينهض باكراً إلى مواصلة عمله ، وبعضهم يصرف وقته وماله وصداقته في الملاهي والمقاهي ؛ فماذا تفعل الفتاة المحتشمة مثلي لتمضية الليالي ، ولا سيما ليالي الشتاء الطويلة ؟ فاما أن تطالع ، أو أن تقف جامدة كالصنم

ولكن أسبانيا لا تزال عربية ، حتى في القرن العشرين لا تزال شرقية ، لا في جوامعها وأبنيتها وحدائقها فحسب ، بل وفي أخلاقها وعاداتها وموسيقاها ، ورقصها وشعرها ، وفي تهذيبها ومزروعاتها

ولهذا السبب تعلمون الآن أني عند ما شاهدت دمشق شعرت أنني أشاهد أسبانيا ، وإذا ذهبتم لمشاهدة أسبانيا شعرتم أنكم في دمشق

من هذا تعلمون أيها العرب أننا إخوة : العرب والاسبان إخوة ، نعم إخوة لأن سلالتهم سلالة واحدة ، ودمهم دم واحد ، وهم من نفس واحدة تكونوا ، وثقافتهم ثقافة واحدة وتاريخهم تاريخ واحد ، وحضارتهم حضارة واحدة

تنظر إلى جدران الغرفة ، أو الى ارتفاع دخان الموقد

فتقول لها زوجة لامرتين : ولكن ما هى الكتب التى يمكن مطالعتها ؟

فتجيبها رينه : هنا البلية يا سيدتى ، نريد المطالعة ولكن لا ندرى ماذا نطالع . لقد وضعت الكتب للذين من غير طبقتنا فاذا استثنينا الانجيليين وكاتب تقليد المسيح لا نجد بين المؤلفين والمنشئين من فكر فينا وجعل قسما من أدبه لنفعنا . من الطبيعى أن يفتكر الانسان فى الذين من طبقته ، فواضعو الروايات والمآسى والمهازل ، وناظمو القصائد والملحمات ، هم من طبقة أعلى من طبقتنا ، أو بالحرى خرجوا من بيئتنا الخاملة العاملة ودخلوا فى بيئات الملوك والأمراء والأشراف والأغنياء والسعداء وغيرهم من الذين يصرفون أوقاتهم عبثاً وأموالهم على الأباطيل

فيقاطعها لامرتين : لا لوم عليهم إذا هم نسوا الطبقة التى خرجوا منها ، أو تركوها جانباً ، وانصرفوا إلى ارضاء أهل البيئة التى دخلوها ، فتلوا أفكارهم ، وتكلموا لغتهم ، وصوروا عاداتهم وأذواقهم ، فهذا الذكاء وهذه المعرفة وهذا الذوق المكتمل الدقيق الأنيق فى الطبقات العالية ، وهذه اللغة والعادات لا يمكن أن تكون كلفة وعادات الطبقات الفقيرة قبل أن تسمو بالتربية إلى ادراك كنه هذه الأشياء الجميلة . كان للقدماء كتّاب وفلاسفة وشعراء عبيد كابيكاتاتو واسابو وتارنسيو ، ولكنهم لم يخصصوا أدبهم بالعبيد ؛ وكان لهم سقراط ، ولكن أفلاطون اضطر الى شرحه لهم كما اضطر تلاميذ هذا ، وهم أكثر منه معرفة الى تفسيره . وكان لهم شيشرون ولكنه خصص معظم أدبه بأفراد أسرة السيبيون ؛ ثم فرجيلوس الذى كان ينشد قصائده الرعائية فى حضرة أميرات بلاط أوغسطس قيصر ، ولكن الرعاة الحقيقين لم يتفهموه ؛ ثم هوراسيو وقد كان ينشد الخمرة والحب المباح بقصائد من الشعر الحافل بالمعانى الملتبسة والصور المأخوذة عن اليونان والتاريخ ، غير أن شعوب عصره لم تكن تنشدها وتدركها

فتقول له رينه : هذا حق يا سيدى إذا استثنينا روبنصن وحياة القديسين فما هى الكتب التى وضعت لنا ؟ ؟ نعم إن لدينا كتابين آخرين هما « تلماك » و « بول وفرجينى » ، ولكن الأول كتب لتهذيب حفيد الملك ، وهو مما لا يهمنا أمره لأننا لسنا من أحفاد الملوك ، والثانى يحرك قلوب الجميع ، لأنه يصف لنا جمال الحب وروعته فى قلبى حبيبين رقيقين لا يستطيعان الحياة منفردين ، وكيف أن مطامع أهليهما حالت دون اتحادهما واكتمال سعادتهما . إن فرجينى ابنة جنرال ، وكان لها عمّة نبيلة أرادت أن تجعلها سيدة راقية ممتازة فأدخلتها الدير . إنها حوادث عجيبة ومشاهدات رائعة ، ولكنها حوادث لم تجر فى منازلنا وبين أفرادنا ، ومشاهد لم تقع عليها أبصارنا . فمن يكتب لنا الروايات والقصائد ؟ لا أحد ! أنا لا أدخل فى عداد الكتاب والشعراء والمؤلفين ، أولئك الذين يجمعون تقاويم تحمل بين ثناياها سخافات الأعوام الغابرة ونكاتها ، ويضعون روايات لا تستطيع العذراء مطالعتها إلا خلسة عن أمها ، وينظمون أناشيد ترفع الشفاه النقية عن التلفظ بها ، ولا أستثنى من هؤلاء إلا بيرانجر الذى أظهر آخرا جمال روحه فى رباعياته البديعة . فمتى يكون للفقراء مكتبة ؟ من يشفق علينا ويؤلف لنا كتاباً ؟

أبدت رينه نظريتها تلك برزانة تفوق معارفها ، وبلهجة تشفّ عن اعتقادها بفقر طبقتها الأدبى مما حمل لامرتين على الافتكار قليلا فى حقيقة ملحوظاتها وأهميتها . وبعد قليل قال لها لامرتين : لقد افتكرت فى كل ذلك يا رينه ، أما الآن فقد تغيّرت أفكارى بعد أن سمعت أقوالك . حقاً إن الشعب الذى يريد التعلّم بالدرس والتسلية بالمطالعة والانتفاع بالخيال والتأثر بالشعور والارتفاع بالفكر ، إما أن يموت جوعا وإما أن يشمل بالفساد إذا لم يتنبه لنفسه . لذلك وجب أن تهتم الهيئة ، أو أن يخلق الله للشعب هوميروس عاملاً وميلتون مزارعا وطاسين جندياً ودانتى صناعياً وفنلون كوخياً وكورنيل وراسين وبوفون من رجال المعامل لكى يضعوا له ما لا تريد الهيئة الأثرة الكسول وضعه : أى أدبا يمثل عاداته ويعبر عن شعوره . إنى أعرض بالفكر ما فى المكاتب من المؤلفات النفيسة لأشهر الكتاب وأختار مجموعة صغيرة منها يمكن لأسرة نزيهة من المزارعين والعمال والخدم رجالاً ونساء كهولاً وشباناً أن تتغذى بها حياتها الروحية ، وأن تتركها على الخوان بغير خوف ، وأن تطالع ليلاً وفى أيام الآحاد دون أن يعوزها مترجم أو مفسر ، فاذا وجدت ؟ وجدت التوراة كتاباً بديعاً حافلاً بالحكايات الشعبية كطفولة النوع البشرى ولكنها ملتحفة بالأسرار والعادات الشائنة والثيرة

والشرور وغيرها مما يفسد الروح والقلب والعادات فيما لو وضعت في يدي ولد أو تحت نظر الشعب الجاهل دون أن يوجد من يفسر معانيها ويهذب ألفاظها . ثم وجدتُ هوميروس وأفلاطون وسوفكلس وأسكيلوس ، ولكنهم عاشوا في عصر غير عصرنا ، وكتبوا بلغة غير لغتنا ، ووصفوا عادات غير عاداتنا ؛ ثم وجدتُ فرجيلوس وهوراسيو وشيشرون وجوفنال وتاسيت ، ولكنهم كتبوا باللاتينية والشعب لا يعرفها ؛ ثم وجدتُ ميلتون وشكسبير وبوبي ودرايدن وبيرون وكرابله ، غير أنهم من الانكليز ؛ ثم تاسو ودانتي وبترارکا ، وهم ثالوث الشعر الايطالي ؛ ثم شيلر وجيته وفيلند وجزنر ، ففي كتبهم صفحات بديعة للشعب لأن الشعر الألماني ينزل الى درجة الشعب والشعب يرتفع اليه ولكنها بالألمانية ؛ ثم سرفنتس وكالديرون ولوبس فيغا ، غير أن كتاباتهم هي من النوع الحماسي الذي لا يمكن تجديده الآن ؛ ثم الشعر الشرقي السامي بحكمه ومعانيه من هندي وفارسي وعربي . إنها كنوز مستورة من الخيال البشري ، ولكن هذه الكنوز الثمينة هي باللغات السنسكريتية والفارسية والعربية ، ولا يوجد من يكتشفها وينقلها الينا

ثم وجدت شعراءنا الفرنسيين القدماء وجل منتوجهم من النوع الروائي الحماسي ، وفي المفاخرات الغرامية الرقة والقوافي الأنيقة ، وكلها في وصف حوادث البلاط والطبقات العالية . هذا بسكال ، فكتاباته إما مناظرات اكليريكية حول جوهر العقيدة لا يفهمها البسطاء ، وإما أفكار عميقة لا يسبر غورها إلا القليلون . وهذا بوسويه ، فقد اشتهر ببلاغة تعابيره وقوة عارضته في الخطابة ، وكان يسره أن يرعد ويبرق فوق الرؤوس المتوجة وفي قاعات البلاط ، ولكن بروقه لم تكن تصعق إلا الشعب الذي كان يستسلم روحا وجسدا إلى سيروس العصر ، فهو مجموعة روامز في اللغة والخطابة لا أكثر . وهذا أيضاً فنيلون ، ففي كتابه « تلماك » وفي المراسلات كثير من الأفكار السامية والمبادئ القويمة كالنفس المتدينة والفلسفة الانسانية والظرف والعطف وروح الفضيلة ، ولكنها صفحات بسيطة لا كتاب للشعب . ثم كورني فهو سياسي مختصر ، وقد وقف في مستوى لا يبلغه القلب البشري ، وأدبه كناية عن عدة مشاهد وأمثال واندفاعات شعرية لا ترضي الشعب الذي يريد الحياة بالاسهاب في شرح العواطف لا باختصارها ، والنفس في نظره هي العبقرية ، ونفس كورني كانت في الكلام كنفس تاسيت . ثم راسين ، فهذا ولد ليكون شاعر الشعب ؛ غير أن شعب عصره لم يكن خليقاً به لسوء الحظ ، لأن البلاط الذي اجتذبه اليه احتفظ به ضد الشعب ، ولا يوافق هذا من أدبه إلا مأساتاه : « أستير » و « ثماليا » بالنظر إلى صبغتهما الدينية ، وما عداهما يخص الأبهاء . ثم ڤولتير وهو روح جبارة استوعبت كل المعارف والعلوم ، ولكن لم يخرج عن كونه مزيجاً من روح وعقل ونور ونقد ونعومة وخشونة وهزء وجذل وأحياناً وقاحة . إنه لم يكن قط نفساً وحناناً وحباً وعطفاً وشفقة على البائسين ؛ كان فيلسوف السعداء ونبيل الأذكياء وشاعراً ضئيل النور لا يتبينه جداً بسطاء القلوب ، يضيء في المكاتب ليخبو في الحقل أو في مسكن الفقير

وإذا نظرنا إلى مؤرخينا لا نجد بينهم من كتب للشعب ، فمونتيسكيو كثير العلو ، ورولين صالح ولكنه شديد الأمانة في ترجمة الماضي فلا يستطيع مطالعته من كانت ساعاته محدودة

وكذلك روائيونا فانهم اتخذوا أشخاص رواياتهم من الطبقات العالية وعبروا عن العواطف بلغة الأبهاء المنمقة لا بلغة الطبيعة الساذجة . فلا يصلح منها شيء للشعب

ثم فلاسفتنا كديكارت وملبرنش وكوندياك وكل الحديثين ، فهما أعيد طبع مؤلفاتهم فلا أعتقد أن الشعب يقبل على مطالعتها ، لأن فلسفة الشعب هي في الشعور لا في الادراك ، فمنطقه غريزته ، وبرهانه تأثره ، واستنتاجه دموعه . ومن مؤلفات جان جاك روسو لا يصلح للشعب إلا الصفحات المائة الأولى من كتابه « خورى سابويا » وبعض فصول من « الاعتراف » ؛ وكذلك شاتوبريان لا يقرأ من مؤلفاته إلا « ريته » و « اتالا » حيث امتزجت الفلسفة بالدموع ، والحنان بالحب

أما مسارحنا فلا يمثل عليها إلا ما كتب للملوك أو الطبقات المتأدبة بدليل انصراف الشعب عنها الى تمثيل الروايات الغنائية التي اخترعها لنفسه . وكذلك علماؤنا فقد كتبوا في الجبر بلغة واصطلاحات تجعل العلوم الطبيعية في حالة الغموض لمن لم يتمرن عليها ، فالذي يجب أن يعبر عن العلوم بلغة الشعب البسيطة لم يخلق بعد . إنه خلق ولكن في انكلترا ؛ هو ابن هرسكل